

خُطب الصَّدَقَات لأبي بكر بن خطاب المرسي - دراسة في الشكل والمضمون

Oratories of dowries to Abi Bakr Ben Khattab El Morsi studying in form and content

هشام تاولي^{1*} ، جامعة تلمسان (مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي)،

hicham.taouli@univ-tlemcen.dz، (الجزائر)

محمد مرتاض²، جامعة تلمسان، (الجزائر)، cmortad2002@yahoo.fr

تاريخ قبول المقال: 07-05-2021

تاريخ إرسال المقال: 01-05-2021

الملخص:

واكب فن الخطابة جميع المتغيرات السياسية والاجتماعية التي عرفتھا العصور المختلفة، وكان الزواج من بين المناسبات التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بهذا الجنس الأدبي، ممثلة في خطب الصَّدَقَات التي كان لها نصيب في العصر الزياني على غرار سائر الفنون الأخرى، ويعود الفضل في ذلك إلى أبي بكر بن خطاب المرسي الذي ترك بصمة واضحة وجليلة على الأدب الزياني، فكتب للملوك والأمراء وحاشيتهم في غرض النكاح حين اشتغل كاتباً في ديوان الإنشاء، ورأينا من الأهمية أن ننصف هذا الغرض بالدراسة والتحليل من خلال الوقوف على المضامين التي احتواها، والتي ميزته من غيره من الأغراض الأخرى، مسلطين الضوء على شكل بنائها وسماتها الأسلوبية وخصائصها الفنية.

الكلمات المفتاحية: خطبة، صَدَقَات، العصر الزياني، ابن خطاب، الخصائص الفنية

Abstract:

The art of oratory had kept up with all the political and social changes that different ages have known, Marriage was one of the social occasions that related to this kind of literature. Represented in oratories of dowries that spread in the Ziani era similar to that of other arts include letters wills and others thanks to Abu Bakr Ibn khattab El Morsi who left a clear trace on ziani Literature when he worked as a writer in the script office, in which he wrote for kings and princes and their courtiers in the purpose of the marriage. We consider it important to describe this purpose by studying and analyzing the contents of the study which have distinguished it from other purposes by highlighting the shape of its structure, its stylistic features and its artistic characteristics.

* هشام تاولي.

Key words: oratory, dawries , Ziani era, Ibn Khattab, artistic characterist

1. مقدمة:

تعد الخطب من فنون النثر الأدبي التي تقوم على مشافهة الجمهور بغرض استمالتهم وإقناعهم، والتأثير في نفوسهم، عرفها العرب منذ العصر الجاهلي، لفصاحتهم وبلاغتهم، وقد تطورت أساليبها مع ظهور الإسلام وعصوره الزاهرة، وبروز الكثير من الخطباء والحكماء في شتى العصور الذين أبدعوا خطبا بليغة في السياسة والدين، ورقيت الخطابة بارتقاء الحياة الاجتماعية فواكبت المناسبات والأحداث والمتغيرات التي شهدتها العصور المختلفة، ومن بينها تلك التي قيلت في غرض الزواج والتي تعرف بخطب الصدقات.

ولم تكن هذه الخطب مستجدة في العصر الزياتي، فقد عرفها العرب منذ العصر الجاهلي، وكان موضوعها يدور حول إقناع أهل الفتاة بمن يرغب في الإصهار إليهم، ومهمة الخطيب في هذه الخطب هو إبراز مزايا الخاطب وفضله؛ لهذا صارت خطبة النكاح بحاجة إلى تفصيل وإطناب، إذ ليس أمام الخطيب إلا أن يفصل في فضائل الخاطب وصفاته الخلقية، وأصبح من سننها أن يطيل الخاطب في خطبته، ويقصر المخطوب إليه في إجابته¹، ففي ذلك يقول الأصمعي: «كانوا يستحبون من الخاطب إلى الرجل حرمة الإطالة، لتدل على الرغبة، ومن المخطوب إليه الإيجاز؛ ليدل على الإجابة»².

و الدارس للأدب في عهد الدولة الزياتية بالرغم من عمرها الطويل سيقف حتما على حقيقة لا مفر منها وهي قلة النصوص النثرية بعامة، وذلك بسبب اندثارها وضياها لأسباب عديدة لا يمكن أن نقف عليها الآن، وما سيعثر عليه ينحصر في الرسائل والخطب والوصايا وبعض المصنفات التاريخية والأدبية. أما الدراسات التي تناولت النثر الزياتي بالدراسة والتحليل، فتطرق إلى نوعين من الخطب وهما السياسي والديني، ولم تشر إلى الخطب الاجتماعية وهذا يعود لقلة النصوص بل لانعدامها وصعوبة الوصول إليها، وهذا النوع هو الآخر كان قاب قوسين أو أدنى من الضياع لولا كتاب "فصل الخطاب في ترسيل أبي بكر بن خطاب" الذي جمع من لدن شخص مجهول، والذي احتوى على نثره من رسائل ديوانية صدرت عن ملوك بني نصر وبني زيان، وإخوانية تبادلها مع علماء وفقهاء عصره، كما ضم هذا الكتاب في بابه الثامن خطب الصدقات التي هي موضوع بحثنا وعددها ست كتبها للملوك والوزراء.

ولم يكن اختيارنا لهذا النوع من الخطب عبثا، بل يعود إلى إهمال الباحثين والدارسين له وعدم الاهتمام به، فجل الدراسات التي خصصت للنثر الزياتي قد أهملت رسائل الصدقات إهمالا وغضت الطرف عنها، فرأينا من الأهمية معالجة هذا النوع من الخطب التي جسدت مظهر اجتماعيا يعد مناسبة

خُطَب الصَّدَقَات لأبي بكر بن خطاب المرسى دراسة في الشكل والمضمون

اجتماعية دينية تتسم بالفرح والسرور، لذا كان من الحكمة إقسطها من خلال الوقوف على مضامينها وخصائصها الأسلوبية، إذ شكلت لونا فنيا من ألوان النثر الفني في هذا العصر.

2. مفهوم الصَّدَقَات لغة واصطلاحا

الصدّاق لغة: ورد الصدّاق في المعاجم بمعنى «الصَّدَقَةُ والصَّدَاقُ والصَّدَاقُ: مهر المرأة، وقد أَصْدَقَ المرأة حين تزوّجها أي جعل لها صَدَاقاً، وقيل: أَصْدَقَهَا سَمَّى لها صَدَاقاً³. وجاء في قاموس المحيط الصَّدَقَةُ بضم الدال مهر المرأة والجمع صُدُقَات⁴. وورد هذا اللفظ أيضا في القرآن الكريم في قوله عز وجل: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾⁵ بمعنى مهورهن.

أما في الاصطلاح فالصَّدُقَات هي نوع من الخطب الاجتماعية يراد بها تلك «الخطب التي تلقى في المواسم الكبار والمحافل العظام، وفي مجالس الخلفاء والملوك والأمراء، وفي الأندية العامة والخاصة؛ لغرض من الأغراض التي تتعلّق بالحياة الاجتماعية»⁶. ومن بين تلك الخطب خطب الصَّدُقَات التي تعرف كذلك بخطب النكاح «فقد جرت العادة أنه إذا تزوج سلطان أو ولده أو بنته أو أحد من الأمراء الأكابر وأعيان الدولة أن تكتب له خطبة صدّاق تكون في الطول والقصر بحسب صاحب العقد، فتطال للملوك وتقصر لمن دونهم بحسب الحال»⁷. فقد خصص الكتاب هذا النوع الأدبي للأعيان وأكابر المجتمع من الملوك والأمراء والوزراء وغيرهم دون عامة الناس.

وهذا النوع من الخطب يمثل مظهرا من المظاهر الاجتماعية التي تسود المجتمع وتعبّر عن الفرح والسرور، ويرتبط ارتباطا وثيقا بالدين الإسلامي إذ هو الذي حث على النكاح ورغب فيه، ووضع له شروطه وضوابطه ومنها المهر الذي يدفع للمرأة، ونظرا لأهمية الزواج فقد كتبت لأجله الخطب، وعدت فنا من «فنون الكتابة يتداولها الكتاب ويتنافسون في عملها، وليس لها تعلق بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها»⁸. وقد ارتبط غرضها -أي خطبة الزواج- عبر العصور بهذا النوع من فنون النثر الأدبي، وعرفها العرب قديما، وصار كل زواج مقرونا بخطبة تسمى خطبة النكاح، قد تكون عند الخطبة أو عند عقد الزواج.

خطب الصدقات لأبي بكر بن خطاب المرسى دراسة في الشكل والمضمون

وصاحب هذه الخطب التي نحن بصدد دراستها هو محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي المرسى نزيل تلمسان من أهل مرسية، كان من أبرع الكتاب خطا وأدبا وشعرا، ومن أعرف الفقهاء بأصول الفقه، كتب بغرناطة عن ملوكها، رجع إلى مرسية وقد اختلت أمورها، فارتحل إلى تلمسان وكتب بها عن أمير المؤمنين يغمراسن بن زيان⁹، أخذ العلم عن علي عدد كبير من علماء بلده ومنهم أبي بكر بن جوهر، وأبي بكر بن محرز، وأبي بكر الغافقي، وأبي علي الحسن بن عبد الرحمن الرفاء، وأبي عيسى محمد بن محمد بن أبي السداد، وأبي المطرف بن عميرة، والربيع بن سالم.¹⁰

وبعد استقراره بتلمسان قرّبه يغمراسن بن زيان من مجلسه وجعله صاحب القلم الأعلى¹¹، فصدرت عنه رسائل عن ديوان الإنشاء الزياني خاطب بها سلاطين تونس ومراكش، وظل ملازما للبلات الزياني إلى أن توفي سنة 686هـ.¹² وترك ابن خطاب إنتاجا أدبيا متنوعا نثرا وشعرا، وقد جُمع نثره في كتاب تحت عنوان "فصل الخطاب في ترسيل أبي بكر بن خطاب" ومن بين النصوص التي احتوى عليها كتابه خطب الصدقات التي سنتناولها بالدراسة من خلال النظر إلى بنائها ومضامينها، والوقوف على أهم الخصائص الفنية التي ميزت هذا النوع من الفنون الأدبية في العهد الزياني.

3. دراسة في الشكل والمضمون:

أولاً: مقدمة الصدقات:

لقد اعتنى الكاتب بمقدمة خطبه التي افتتح بها نصه، وغايته من وراء ذلك هو التمهيد للغرض المقصود وإثارة انتباه مستمعيه بنقلهم من موقف إلى آخر، حيث استهلها بعبارات التحميد والتمجيد، ضمن عنصرين اثنين أولهما الحمدة، فأول ما يبدأ به الكاتب نصه هو حمد الله، وذكر فضله على العباد، ففي صداق يقول: «الحمد لله الذي سوغنا من موارد توفيقه، السالك بنا على نهج الرشيد وطريقه صفوا عذبا، واستقينا درر سحائب إحسانه، الصادقة الأقواء، الصاعدة الأضواء، فأنهلت علينا بالنعماء سكبا، وأظهر في صنعه الذي بهر من لطائف أسرار، لمن تأمل بعين اعتباره، ما أزال به الريب عن المرتاب، ورسم فيه أثر فعله الذي لا يتصف بالجبر والاكْتساب، ورفع عن غيب إرادته التي لا تتوقف على سبب، ولا تصدر عنها الموجودات لغرض ولا أرب، ستورا من الأعراض زالت دونها وحجبا، ونادي العقول التي انجاب عنها عماء العماية، وانجلى لتبليغ لسان حكمته الكافية للكافة».¹³

ثم ينتقل بعد ذلك إلى العنصر الآخر وهو التصلية مادحا الرسول صلى الله عليه وسلم وذاكرا فضله على البشرية جمعاء: «ونصلي على من انتخبه من أشرف بيوت العرب نسبا، وأطهرها أما وأبا، وأسمحها بما ملكته نفوسا ونشبا، وأصدقها مصاعا، وأطولها إذا وصلت الأسياف بالخطا باعا، وأعلاها

خطب الصدقات لأبي بكر بن خطاب المرسى دراسة في الشكل والمضمون

يوم الجود يدا وكعبا، سيدنا محمد رسوله الذي اجتباة لحمل أمانة وحيه، واختاره، ورفع له ذكره، ووضع عنه أوزاره».¹⁴

وفي حقيقة الأمر لا يمكننا حصر المعاني والمواضيع التي جاء بها ابن خطاب في مقدمة هذه الصدقات فقد تعددت وتنوعت، إضافة إلى ما ذكرناه نجده يتعرض لتغير الأحوال والظروف عند مجيء الإسلام، ويقارن بين الجاهلية والإسلام وبين الكفر والإيمان، وقد يعدد قدرة الله في الكون وغير ذلك من المعاني.

ثانيا: عرض الصدقات:

العرض جوهر أي عمل أدبي وأساسه وهو الدافع والمحفز الذي بسببه أنجز الكاتب عمله الأدبي فهو ذو أهمية كبيرة ومن هنا كان لا بد على الكاتب من التمهيد له بما يناسب من العبارات لإثارة انتباه القارئ، ففي هذه الصدقات نلاحظ أن ابن خطاب فصل بين مقدماتها وعرضها بلفظ البعدية الذي تضمن العناصر الآتية:

أ.مدح الزوج والثناء عليه: بإظهار سجايا الخاطب وإظهار الرغبة في النكاح والتماس النسب والشرف الرفيع في مثل قوله: «فإن فلانا من له العلاء الصميم، والسناء الحديث والقديم، وأنجبه البيت الباسق عماد الناسق، من صدور الأعيان، أكابرا أمجادا، أباء وأولادا، نعدّهم حسيبا حسيبا، ونجيبا نجيبا، وندبا ندبا، وتحلى من اليسر بأجمل سماته، وكمل صفاته»¹⁵

وتمضي الخطبة على هذا النحو من المدح والإشادة بصفات الزوج، ثم ينتقل بعدها الخطيب إلى إبداء الرغبة في الزواج متخييرا البيت المناسب الذي يليق بشرفه وأصله، حتى يجد ما يصبو إليه لما بينهما من تشابه في الصفات والخصائص، في قوله: «وعلم من حظها إلى النكاح، وإرشادها إلى تخير ذات الشرف والصلاح، وتنبيهها على ما فيه المنفعة الكفيلة... فارتاد محلا ينتمي إلى المجد انتماءه، ويستوفي المحامد والمآثر استيفاءه، فتردد نظره في الأخبار تأخيرا وتقديما، وأخذ يتبع المناسب زكيا زكيا، وكريما كريما، ويطلب الوصف المناسب سيرا وتقسيما، فلم يلفه محررا من المانع المخل باقتضائه سليما، إلا في المحل الذي يساميه إلى سني الرتب، ويساجله منه ماجدا يملا الدلو إلى عقد الكرب، يفاخر بمنصبه كمنصبه، ويزاحم بمنكب مثل منكبه، وهو بيت قريبه فلان».¹⁶

أما إن كان أحد الطرفين سواء الخاطب أم المخطوب إليه ذا منزلة رفيعة، فإنه يستهل بمدحه والثناء عليه مثلما فعل في صداق عثمان بن يغمراسن لابنة أبي إسحاق: «فإن مولانا الأمير الأعلى أبا إسحاق سراج الأمراء، وتاج الملوك الكبراء، من له الشرف المتناقل من كبير إلى كبير، ومن أمير إلى

خُطَب الصَّدَقَات لأبي بكر بن خطاب المرسى دراسة في الشكل والمضمون

أمير، والجلال الذي لا يساميه إلى مرتبته، ولا ينافسه في منقبته إلا من يحسد الشمس، ويطمع أن تأتي له بنظير». ¹⁷ حيث صرف مدحه إلى السلطان الحفصي أبي إسحاق بدل الخاطب، وفي ذلك نوع من المجاملة والتودد إليه نظرا للمكانة التي يتبوؤها مقارنة بالطرف الآخر الذي يعد أقل منزلة منه حيث إن عثمان بن يغمراسن ممن يعلنون الولاء له.

ب . **الثناء على الزوجة وإظهار القبول:** وبعد ذلك يذكر الطرف الآخر في هذا العقد وهو الزوجة مادحا إياها هي أيضا بما يليق من صفات: «فخطب إليه بنته المباركة، زهرة الفرع الناظر، ودرة عقد الحرائر المسماة بفلاتنة - حفظها الله - خطبة سفرت من السعد عن محيا راق سنا، واستحسن إقبالها فتقبلت قبولا حسنا، وقوم ما عرضت من الرغبة، فبدل الإسعاف والاعتباط لها ثمنا، وزادت بالمصاهرة إلى علاقة القربى علاقة أخرى وقربى، فانبرم عقد الأملاك بينهما في الخطوبة على بركة الله التي لا تنفذ خزائنها». ¹⁸ فهذا النص يكشف عن الرغبة المتبادلة بين الخاطب والمخطوب إليه، كما تشير إلى حسن الاختيار، وحسن الظن بالخطيب، لاسيما إذا كان من ذوي القربى، فهم أعرف بمزاياه وطبائعه وفضائله. وفي صداق آخر إلى جانب الإشادة بالزوجة يبين مدى قبولها واستعدادها للزواج فيقول: « فخطب ابنة بنته الخرة الجلييلة أمة العزيز درة عقد علائه، وشمس أفق سنائه، حرس الله جلالها، واستقبالها خطبة تلقبت بوجه من الأسفار طليق، وحملت من البر والتحفي على أوضح طريق، حين علم أن مهديها أهل لأن تبدل فيه، وتقبل حظوته». ¹⁹

ج. **الصداق:** وهو الغرض الذي لأجله أنشئت هذه الصداقات، باعتباره ركنا من أركان الزواج يشير الكاتب فيه إلى قيمة المهر الذي منح للزوجة، ففي زواج عثمان بن يغمراسن لابنة السلطان الحفصي أبي إسحاق عقد القران بينهما على صداق تمثل في: « وعلى صداق مبلغ جميعه الذي انعقد به الأملاك مائة ألف من الدينائر العشرية الصرف، ومائة مملوكة، والنصف الواحد من وهران في وهم والسهم الذي له في بني وريند، وبلد تافدة، بما يحتوي عليه من أرض سقي، وبعل، ومياه، وأشجار، واريح، وديار، ومعمور، وغامر، وغير ذلك مما ينطلق عليه اسم مال». ²⁰

وفي صداق آخر يقول: «فانبرم قعد النكاح بينها في المخطوبة على بركة الله المفعمة السجال، المحسنة للأمال، وتوفيه الذي به تمام الألفة وصلاح الأحوال، وعلى صداق مبلغ جميعه بين نقد وكالي خمسون دينارا من دنانير الذهب الكبار و مملوكتان اثنتان من رقيق السودان، تزوجها بكلمة الله الراقية، وعلى سنة نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المنجية لمن تمسك بها الواقية». ²¹

خطب الصدقات لأبي بكر بن خطاب المرسى دراسة في الشكل والمضمون

مما يلاحظ على قيمة المهر في هذه الصدقات هو المبالغة فيه، وهذا راجع إلى قدرة الخاطب الذي قد يكون وزيراً أو أميراً وغير ذلك، ونرى أن ابن خطاب يعطي هذا العنصر حقه من الاهتمام إذ يذكر قيمة المهر بالتفصيل لكونه ركن من أركان الزواج في الإسلام إذ لا يصح إلا به.

ثالثاً: خاتمة الصدقات:

الخاتمة هي «آخر ما يعيه السمع، ويرتسم في النفس»²² من الخطبة، وبها يدرك الخطيب مراده، وقد ختم ابن خطاب هذه الصدقات بالدعاء الذي يناسب غرضها، ففي صداق يقول: «والله يبقيهما والسعد لهما خادم، والتوفيق لشملمهما ناظم، والاعتناء الرباني لجوانبهما عاصم، ويرسم لهما من النعم الوافرة، ونعيم الدنيا والآخرة، أحسن ما هو راسم».²³ فمضمون الدعاء مناسب تماماً للغرض الذي لأجله كتبت هذه الخطب، فأفضل ما ينهي به كلامه هو الدعاء لطرفي النكاح بالسعادة والتوفيق في مثل قوله أيضاً: «والله يجعل انتظامهما خير انتظام وأجمله، ويعرفهما من سعادة الأيام والتوفيق المستدام ما يفضل آخره أوله، ويريهما من قرة الأعين فوق ما رجاه كل واحد منهما وأمله».²⁴

4. الخصائص الأسلوبية:**1.4. الإطناب:**

إن سمة الإطناب قد طغت على خطب الصدقات الموجهة بالأساس إلى ذوي الشأن من الملوك وحاشيتهم من وزراء وكتاب وقضاة، لذلك كان طبيعياً أن يطيل ابن خطاب فيها لاسيما في مقدمتها التي يستغرق فيها حيزاً كبيراً مقارنة بالعنصرين الآخرين ففي الحمدة يذكر قدرة الله وعظمته وتعدد فضله على الإنسان من نعم خصها إياه من عقل وتبيان قدرته في خلق الكون والمخلوقات وغير ذلك من المعاني. وفي التصلية التي تزدحم فيها المواضيع التي خص بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) يسترسل في مدحه، وذكر سيرته ومعجزاته ومكانته بين الأنبياء والرسل، وفضله على الأمة التي أخرجها من الجهل والظلال إلى النور والإيمان، وقد يشير إلى فضل النكاح.

ف تكرار هذه المعاني والإكثار من توظيفها هو ما يجعل هذه الخطب تنتم بالإطناب، أضف إلى ذلك ميل الكاتب إلى السهولة والوضوح والابتعاد عن التعقيد وحرصه على التنويع بين الشعر والنثر والاقتباس من القرآن الكريم هو ما دفعه إلى الإطناب والإسهاب وتكرار المعاني، ناهيك من تعدد المواضيع التي يتطرق إليها من مدح للزوجين ونسبهما وأصلهما، وذكر قيمة المهر بالتفصيل كل ذلك جعل هذه الخطب تطول، فخطبة واحدة عنده قد تستغرق ست صفحات.

2.4. الاقتباس:

يبدو الأثر الديني واضحاً في أسلوب الصدقات، حيث حفلت بالعديد من الاقتباسات من القرآن الكريم ولا غرابة في ذلك مادام أنها ذات طابع ديني، وجاءت طرقه وأساليبه بتضمين الآية كما هي دون تغيير أو حذف في سياقها مثل قوله: «وعاين من الجلال ما تجلى لعيانه، ﴿إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى، مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾²⁵، ففاز بالنعيم الجسيم عينا وقلبا».²⁶

وقد يأتي ببعض ألفاظ الآية الكريمة مع تغيير بسيط في مثل قوله: «ونتبأ بها إلى مستقر رضوانه يوم لا يغنى والد عن ولده ولا الوالد يغني عن مولوده».²⁷ مضمناً قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾²⁸

وقد يجمع في سياق كلامه بين آيتين أو أكثر في مثل قوله: «وسنّ (محمد صلى الله عليه وسلم) لهم في التحريم والتحليل سنة محفوظة من التغيير والتبديل، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ولا تزال راسخة الأصل باسقة الفرع إلى يوم الفصل... وانفرد بالاستغناء عما أحوجهم إليه من الصاحبة والأبناء، فتبت يدا من جوز عليه أن يتخذ صاحبة ولدا».²⁹ فقد جمع على التوالي بين قوله عز وجل: ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾³⁰ وبين قوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾³¹ وبين قوله: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾³²

3.4. التنويع بين النثر والشعر :

كان للشعر نصيب في هذه الكتب وإن كان بدرجة أقل من القرآن الكريم إلا أن ابن الخطيب استعان بالموثوث الشعري كلما كانت الفرصة مواتية لذلك سواء من خلال تضمينه كما هو أو عن طريق حله وجعله منشوراً ضمن كلامه، فالوجه الأول يظهر في حالة واحدة من خلال توظيفه لببيت كثير عزة في سياق قوله: «فأدى (الرسول صلى الله عليه وسلم) عن ربه ما أمر بأدائه، وتثبت له فيما بلغ العصمة ونبتت في قلب المؤمن الرأفة والرحمة... والصدّيق يقول:

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا خَرُّوا لِعِزَّةِ رُكْعَا وَسُجُودًا³³

حتى تجلى الصبح المبين، وأذهب الشك اليقين، فذلت الصعاب، ولانت الصلاب».³⁴

أما الوجه الآخر الذي يقوم على حل الشعر وجعله منشوراً ضمن كلامه فتجلى في قوله: «ويساجله منه ماجد، يملأ الدلو إلى عقد الكرب، يفاخر بمنصب كمنصبه، ويزاحم بمنكب مثل منكبه».³⁵

فقد استعان بيت الأخضر اللهبي:

وَمَنْ يُسَاجِلُنِي يُسَاجِلُ مَاجِدًا يَمْلَأُ الدَّلُو إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ³⁶

ونظير ذلك أيضاً، حل بيت النابغة الذبياني في قوله: «ولاح له بارق السعادة ليلة سعد به البراق، فسلك في تلك المفازة على لاحب لا يهتدي بمناره، ولا موقد فيه، يعيش إلى ضوء ناره».

مَتَى تَأْتِيهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدَ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مَوْقِدٍ³⁷

وله أيضاً قوله: «ومحا بحقه باطلها، كما محا السيف ما قال ابن دارة، فعرف المأخوذ والمتروك».³⁸ مستعينا بعجز بيت الكميت:

وَلَا تُكْثِرُوا فِيهِ الضَّجَاجَ فَإِنَّهُ مَحَا السَّيْفُ مَا قَالَ ابْنُ دَارَةَ أَجْمَعًا³⁹

4.4. السجع:

وهو من أبرز المحسنات البديعية استعمالاً في كلام العرب منذ القديم، لما له من قيمة جمالية ودلالية وإيقاعية متعددة، لذلك لم تخل هذه الخطب منه، فلقد بدا السجع واضحاً في عباراتها حيث نوع الكاتب في فواصله ولم يجر فيه على حرف واحد في مثل قوله: «وبعد فإن الأمير السلطان أبا عبد الله بن فلان أسعده الله، كما أسعد به، وحفظ تقدّم محلّه في الأمراء الأمجاد، وسمو رتبته لما بوأ الأمراء بسعة حلمه، وفاق من الحمد بمعناه واسمه، وتزيا بالعدل بأجل اللباس، وأحبه الله فألقى عليه محبة الناس، فأصبح حماه للخائف منيعاً، وجنابه للنائل مرعى مريعاً».⁴⁰

والملاحظ أن ابن خطاب في هذه الصدقات يتكلف في سجعته، ويعتمد على التنويع في الفواصل وطول الفقرات مثل قوله: «والكفر قد أفرط في غلوائه تكبرا، والإيمان قضية مجهولة تصدقا وتصورا، والعدل ضالة لا يعرف لها ناشد، ولا يعرفها واحد، والجاهلية الجهلاء تحكم بالأهواء، وتبسط أيديها بالاعتداء، وتشذ شفراتها لسفك الدماء، فلا ترى إلا غصبا أو غضبا، ففسح صلى الله عليه وسلم تلك الأعمال الفاسدة، ونفق سوق العدل الكاسدة».⁴¹ فهذه العبارات التي تنتهي بفواصل موحدة أضفت على النص جمالا موسيقيا زاد من حسن الإيقاع وجمال الاتساق.

5.4. الجناس:

وهو من الألوان الزخرفية التي استعان بها ابن خطاب لتتميق كلامه، وهو يقترن غالبا بالسجع، فالكلمات التي تكون في نهاية الجمل المسجوعة تتشابه في الحرف الأخير أو في مجموعة من الحروف، ومن أمثلة ذلك قوله: «...كيف تؤخذ مقدمة البرهان الذي يجلو الشك، ويحيل الشرك من مواضعها، فمن مقبل متعلّم، ومعرض بلسان بغية متكلّم، وبداء حسده متألّم».⁴² فقد جانس بين كلمتي الشك والشرك، وبين الكلمات متعلّم/ متكلّم/ متألّم، وهذا النوع من الجناس الناقص.

خطب الصدقات لأبي بكر بن خطاب المرسى دراسة في الشكل والمضمون

وتكمن أهمية الجناس في كونه صورة من صور الألفاظ إذا ما توافقت مع المعنى أحدثت نغما موسيقيا وانسجاما، في مثل قوله ابن خطاب: « ثبتت للإيمان الإدالة، وللکفر الإدالة، وانقاد الجموح، وتميز الراجح والمرجوح، ولم يزل صلى الله عليه وسلم يعيد لأمتة المسالك، ويحذرهم من المهالك، ويبلغهم عن ربهم المآلک». ⁴³ فقد جانس بين الإدالة التي هي بمعنى الغلبة، وبين الإدالة التي بمعنى آخر الشيء، كما جانس بين الجموح والمرجوح، وبين المسالك والمهالك والمآلک التي هي بمعنى الرسائل، فهذا التتويج في الجناس في نص واحد يرفع من إيقاعه ويزيد موسيقاه مما يطرب النفس ويجذب المستمع.

6.4. الخيال والصورة:

يعدُّ الخيال من العناصر المهمة في التعبير والتصوير، وبه يستطيع الكاتب أن يستميل عقول السامعين، ويقرب المعنى إلى الأذهان، ومن خلال النظر في النصوص التي بين أيدينا من خطب هذا نجد أن ابن خطاب قد استعان بالخيال لأنَّ له القدرة على تأليف الصور، وإبراز المعاني في أساليب جديدة. ومن الصور التي تنطوي على جمالية في التعبير وحسن التصوير قوله: «... وعلى سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم التي نسخت بها السنن السالفة، وفاضت ينابيعها، حيث فاءت ظلالها الوافرة، فتسارعنا إلى مشارعها العذاب كأسراب القطا ورودا». ⁴⁴ فهذه الصورة التي رسمها الكاتب لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تعبر عن الخير والنماء، فجعلها تشبه الأرض الوافرة المياه الكثيرة الأشجار.

وفي سياق دعائه للزوجين يصور السعادة بالشمس التي لا تغيب ولا تختفي في قوله: « والله تعالى يبيقيهما ومراتب غرتها راقية، وكلاءة الله لجوانبهما واقية، وشمس سعدهما لا منسكبة، ولا متوارية». ⁴⁵ ويصور ابن خطاب زمن بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقوله: « وأرسله بالعبر يجلوها، وبالسور يتلوها، والشرك قد شيد مبنى، وأيد بطشه وبطشت يده، والتوحيد طلل قد عفا رسمه، وصم صده». ⁴⁶ حيث رسم الشرك بصورة الإنسان الذي يشيد المبنى، وجعل له يدا يبطش بها، وشبه التوحيد بالطلل الذي لم تبق آثاره، وجعله إنسانا لا يسمع.

ومن أمثلة الصور أيضا، قوله: «فخطب إليه ابنته المباركة زهرة الفرع الناضر، ودرة عقد الحرائر» ⁴⁷ ففي هذا النص تشبيهان الأول حين شبه المخطوبة بالزهرة التي تبنت في العود الأخضر، والآخر تشبيهها بالؤلؤة الثمينة.

5. خاتمة:

لقد قصدنا من خلال دراستنا لخطب الصدقات لابن خطاب المرسى في العهد الزباني كشف اللثام عن فن أدبي ظل مغمورا فترة من الزمن يضاف إلى بقية الفنون النثرية التي عرفها هذا العصر، بغرض إثرائه وإعطائه حقه من الدراسة والتحليل، حيث اتضح لنا أنها بنيت في شكلها على ثلاثة عناصر

خُطب الصَّدَقَات لأبي بكر بن خطاب المرسى دراسة في الشكل والمضمون

أساسية غيرها من الخطب الأخرى، أولها المقدمة التي جاءت على شكل خطبة مطولة، وثانيها العرض الذي تضمن عناصر متعددة تدور كلها حول طرفي النكاح والمهر الذي يمنح للزوجة، وثالثها الخاتمة التي جاءت على نمط واحد إذ اشتملت على الدعاء للزوجين بدوام السعادة والتوفيق للطرفين، وقد اتسمت هذه الصدقات بالإطناب في المعاني والطول في الحجم، وأصبغها ابن خطاب بألوان البديع من طباق وسجع وجناس، وبالصور والأخيلة المختلفة من تشبيه واستعارات مما منحها صفة الأدبية.

خُطَب الصَّدَقَات لأبي بكر بن خطاب المرسي دراسة في الشكل والمضمون

الهوامش:

- ¹ اللهبي حسين عبد العال، الخطابة العربية في العصر الوسيط (656-1213هـ) - دراسة في الموضوع والفن، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، 16، 2014، ص 343.
- ² القيرواني أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط4، دار الجيل، بيروت، 1972م، ص478.
- ³ ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، مج10، دار صادر، بيروت، دت، ص197.
- ⁴ الفيروزآبادي مجد الدين محمد، قاموس المحيط، مراجعة: أنس محمد الشامي، دار الحديث، القاهرة، 2008م، ص920.
- ⁵ سورة النساء، الآية: 04.
- ⁶ حسين عبد العال اللهبي، المرجع السابق، ص343.
- ⁷ القلقشندي أحمد، صبح الأعشى، ج14، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1919م، ص 300.
- ⁸ المصدر نفسه، ج14، ص 110.
- ⁹ ابن مريم محمد التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مراجعة: محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908م، ص 227.
- ¹⁰ ابن خلدون يحيى، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، ج1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ص 169.
- ¹¹ التتسي محمد بن عبد الله، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، تحقيق: محمود آغا بوعباد، موفم للنشر، الجزائر، 2011م، ص 127.
- ¹² ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، ط2، ج2، مكتبة الخانجي، القاهرة، الشركة المصرية للطباعة والنشر، 1973م، ص 433.
- ¹³ المرسي أبو بكر بن خطاب، فصل الخطاب في ترسيل أبي بكر بن خطاب، تحقيق: حسن الغيلاني، دكتوراه جامعة مدريد، 1994م، ص309.
- ¹⁴ المصدر نفسه، ص311.
- ¹⁵ المصدر نفسه، ص314.
- ¹⁶ المصدر نفسه، ص314.
- ¹⁷ المصدر نفسه، ص329.
- ¹⁸ المصدر نفسه، ص 315.
- ¹⁹ المصدر نفسه، ص324.
- ²⁰ المصدر نفسه، ص331.
- ²¹ المصدر نفسه، ص333.
- ²² القزويني جمال الدين محمد الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، ط5، بيروت، مج2، 1985م، ص598.
- ²³ أبو بكر بن خطاب المرسي، مصدر سابق، ص324.
- ²⁴ المصدر نفسه، ص334.
- ²⁵ سورة النجم، الآيتين: 16-17.

خُطَب الصَّدَقَات لأبي بكر بن خطاب المرسي دراسة في الشكل والمضمون

- ²⁶ المصدر نفسه، ص312.
- ²⁷ المصدر نفسه، ص322.
- ²⁸ سورة لقمان، الآية: 33.
- ²⁹ المرسي أبو بكر بن خطاب ، مصدر سابق، ص327.
- ³⁰ سورة طه، الآية: 107.
- ³¹ سورة المسد، الآية: 01.
- ³² سورة الجن ، الآية: 03.
- ³³ كثير عزة، الديوان، جمع وشرح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1971م، ص442.
- ³⁴ المرسي أبو بكر بن خطاب ، فصل الخطاب، ص319.
- ³⁵ المصدر نفسه، ص315.
- ³⁶ الأصفهاني أبو الفرج علي بن الحسين ، كتاب الأغاني، تحقيق: إحسان عباس وآخرون، ط3، ج16، دار صادر، بيروت، 2008م، ص116.
- ³⁷ النابغة الذبياني، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط2، دار المعارف، القاهرة، دت ، ص229.
- ³⁸ المرسي أبو بكر بن خطاب ،المصدر السابق، ص319.
- ³⁹ الكميت بن زيد الأسدي، الديوان، تحقيق: محمد نبيل طريفي، ط1، دار صادر، بيروت ، 2000م، ص413.
- ⁴⁰ المرسي أبو بكر بن خطاب ، المصدر السابق، ص323.
- ⁴¹ المصدر نفسه، ص312.
- ⁴² المصدر نفسه، ص313.
- ⁴³ المصدر نفسه، ص 328.
- ⁴⁴ المصدر نفسه، ص321.
- ⁴⁵ المصدر نفسه، ص331.
- ⁴⁶ المصدر نفسه، ص328.
- ⁴⁷ المصدر نفسه، ص315.
- قائمة المصادر والمراجع:**
- القرآن الكريم برواية ورش
- أولاً: الكتب

1. ابن الخطيب لسان الدين ،الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، ط2، ج2، مكتبة الخانجي، القاهرة، الشركة المصرية للطباعة والنشر، 1973م.
2. ابن خلدون يحيى ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، ج1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.

خُطب الصَّدَقَات لأبي بكر بن خطاب المرسى دراسة في الشكل والمضمون

3. ابن مريم محمد التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مراجعة: محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908م.
4. ابن منظور جمال الدين ، لسان العرب، مج10، دار صادر، بيروت، دت.
5. أبو بكر بن خطاب المرسى، فصل الخطاب في ترسيل أبي بكر بن خطاب، تحقيق: حسن الغيلاني، دكتوراه جامعة مدريد، 1994م.
6. الأصفهاني أبو الفرج علي بن الحسين ، كتاب الأغاني، تحقيق: إحسان عباس وآخرون، ط3، ج16، دار صادر، بيروت، 2008م.
7. التنسي محمد بن عبد الله ، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، تحقيق: محمود آغا بوعياض، موفم للنشر، الجزائر، 2011م.
8. الفيروزآبادي مجد الدين محمد ، قاموس المحيط، مراجعة: أنس محمد الشامي، دار الحديث، القاهرة، 2008م.
9. القلقشندي أحمد ، صبح الأعشى، ج14، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1919م.
10. القيرواني أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب: ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط4، دار الجيل، بيروت، 1972م.
11. كثير عزة، الديوان، جمع وشرح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1971م.
12. الكميت بن زيد الأسدي، الديوان، تحقيق: محمد نبيل طريفي، ط1، دار صادر، بيروت ، 2000م.
13. لقزويني جمال الدين محمد الخطيب ، الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبدیع، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، ط5، بيروت، مج2، 1985م.
14. النابغة الذبياني، الديوان، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط2، دار المعارف، القاهرة، دت .

ثانيا: المقالات

1. اللهبي حسين عبد العال ، الخطابة العربية في العصر الوسيط(656- 1213هـ) - دراسة في الموضوع والفن ، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، ع16، 2014.